التربية والنمو وتكوين الشخصية

تعد مراحل النمو عند الإنسان، من العوامل الأساسية لتحقيق شخصيته الاجتماعية، باعتبار أن هذه المراحل تتكامل ضمن عملية تربوية مستمرة في الطفولة والنضج والشباب... ومدى الحياة. وإذا كانت مظاهر النمو تتغير من مرحلة إلى أخرى، فإنّها – في الوقت ذاته- متصلة بعضها مع بعض ومتداخلة ، حيث تتأثّر كلّ مرحلة بما قبلها، وتؤثّر فيما بعدها في إطار المعطيات الوراثية والمحرضات البيئية / التربوية.

فما هي طبيعة النمو ومراحله ؟ وما دور الوراثة والبيئة في عملية النمو ضمن الإطار التربوي ؟

1. مفهوم النمو وعوامله

النمو في اللغة: من نما ينمو نماء: أي زاد وكبر حجماً وطولاً.

أما في **المصطلح العلمي:** فالنمو: " سلسلة متتابعة من التغيرات التي تسير نحو اكتمال النضج.. وهو ظاهرة طبيعية، مستمرة وتدريجية تسير بالكائن الحي نحو النضج، وتحدث من جانبين: **جانب تكويني،** أي النمو الخارجي الطول والعرض والوزن، **وجانب وظيفي،** أي نمو الوظائف الجسمية والعقلية والاجتماعية والنفسية.. لكن ثمة اختلاف في معدلات نمو هذه الجوانب وتطورها، فهي عند الأطفال الصغار أكثر من الأطفال في سن ما بين (10- 14) سنة تبعاً لتكوينهم البيولوجي.والتربية هي التي تهيء الوسائل المختلفة لتحقيق النمو السليم، حتى يصل إلى أفضل المستويات في الجوانب المكونة للشخصية السوية.

وثمة عوامل تتحكّم في إيقاعات النمو، إيجاباً أو سلباً، ومن أهمها:

1- **التغذية:** إن سوء التغذية، ولا سيما سوء التغذية المزمن، يؤدي إلى قصور النمو وتأخيره في الطول والوزن، وقد يؤدي إلى توقّفه في بعض الحالات.

2- **الأمراض:** إن الأمراض الخفيفة والقصيرة الأمد نسبياً، كالحصبة والتهاب الإذن، لا تؤدي إلى تخلّف في النمو إذا لم يلقَ الأطفال المصابون العناية الكافية.

3- **الاضطرابات النفسية:** تؤدي الاضطرابات النفسية المستمرة إلى اضطراب في النمـو أو تباطئه. وربما يؤخذ هنا بالمثل الشعبي المعروف: " **إن كسرة من الخبز اليابس فـي بيت يسوده الوئام، أفضل من لحم وافر في بيت يسوده الخصام...**"

4- الطبقة الاجتماعية/الاقتصادية: فقد أوضحت الدراسات التي تمت في هذا المجال، أن متوسط طول أبناء الطبقة العليا، هو على الدوام أعلى من متوسط الطول عند أبناء الطبقات الدنيا والمحرومة،حيث يتراوح الفرق ما بين (2-3سم) في الطفولة، وما بين (4-5 سم) في المراهقة والشباب.

إن فروق الطول بين أبناء الطبقات الميسورة ، وأبناء الطبقات المحرومة، ترجع في أغلب الأحيان، إلى النضج المبكر عند أبناء الطبقات الميسورة. ومن جهة أخرى، أظهرت بعض الدراسات، أن ثمة فروقاً تصل إلى شهرين تقريباً، في ظهور الطمث الأول بين البنات اللواتي ينتمين إلى أسر تمارس المهن الحرة، أو تشغل المناصب العليا، وبين بنات العمال العاديين.. !!

2. الوراثة والتربية وتكوين الشخصية

إذا نظرنا إلى الناس من حولنا، فإننا نشاهد أنماطاً من البشر يختلف بعضها عن بعض في كثير من الصفات والسلوكات،حتى عند الأشقّاء التوائم الذين يملكون الشكل الجسدي ذاته.

والسؤال: هل يعزى ذلك إلى العوامل الوراثية؟ أم إلى الوراثة والتربية معاً؟

مفهوم الوراثة وتأثيرها

تعرف الوراثة بوجه عام، بأنّها: جملة العوامل الوراثية الموجودة داخل الكائن الحي، والتي تنقل الصفات الوراثية من الآباء إلى الأبناء.. وتتمثّل في لون الجلد والعينين والشعر وطول القامة، وغير ذلك من الصفات الثابتة في شخصية الإنسان، إضافة إلى خصائص الجنس البشري مثل: المشي واللغة والتفكير، وكلّ ما يضمن استمرارية النوع ويساعد جسم الإنسان على التكيف والتأقلم مع شروط الحياة المختلفة.

ويبدي كثير من علماء الوراثة والتربية، تحفّظات على تأثير الوراثة في السلوك الفردي والاجتماعي..فلا توجد مثلاً: استعدادات وراثية مسبقة للغيرة أو الخجل أو البخل. غير أن الميل إلى السلوك المعادي للمجتمع، يبدو وكأن في عاملاً وراثياً إلى حد ما. وعلى هذا الأساس، فإنّه لمن الصعوبة أن نحدد أثر أي **عامل وراثي** (جسدي أو نفسي) في شخصية الفرد وسلوكاته، ولا سيما تلك الصفات التي تؤثّر في قابلية الفرد للاندماج في الجماعة. مثل: الكرم والتسامح وحدة المزاج.. وهنا قد يكون للتربية دوراً فاعلاً في توجيه هذه الصفات.

انقسم علماء النفس والتربية إلى فريقين: فمنهم من يقول بأن الصفات الوراثية هي كلّ شيء في شخصية الإنسان من النواحي (الجسدية والعقلية والخُلُقية والانفعالية)، ومنهم: / أوغست

كونت /.. بينما يرى الفريق الثاني بأن الفرد مدين بأهم صفاته إلى التربية المكتسبة، وأن الوراثة ليست بشيء يذكر بجانب تأثيرات البيئة التربوية.. ومنهم / جان جاك روسو، وأدم سميث /.

الوراثة والتربية

لقد اهتمت الدراسات النفسية بالخصائص الجسمية الموروثة، لتحديد علاقتها بسلوك الفرد من جهة، ودور التأثيرات البيئية / التربوية في السلوك من جهة أخرى، حيث يميل النفسيون / التربويون إلى الاعتقاد بأهمية العوامل البيئية.

فعلى سبيل المثال: الشخص القوي البنية والرياضي، والذي يميل إلى السيطرة وتولّي المراكز القيادية، لا بد وأن تعرض إلى خبرات اجتماعية في أثناء نموه وتنشئته، أسهمت في إكسابه هذه السلوكات.

فالوراثة والمكتسبات التربوية متكاملتان في التأثير المتبادل على نمو الشخصية وتطورها.. فلا تربية من دون استعدادات وقدرات وراثية تعمل على تنميتها وتفعيلها، ولا مورثات متنامية وفاعلة من دون تربية توجهها وتطورها.

انقسم علماء النفس والتربية إلى فريقين: فمنهم من يقول بأن الصفات الوراثية هي كلّ شيء في شخصية الإنسان من النواحي (الجسدية والعقلية والخُلُقية والانفعالية)، ومنهم: / أوغست كونت /.. بينما يرى الفريق الثاني بأن الفرد مدين بأهم صفاته إلى التربية المكتسبة، وأن الوراثة ليست بشيء يذكر بجانب تأثيرات البيئة التربوية.. ومنهم / جان جاك روسو، وأدم سميث /.

3. البيئة والتربية وتكوين الشخصية

ما أن يولد الإنسان حتى تبدأ معه عملية تحويل في بعض الصفات الوراثية، بفعل البيئة الاجتماعية / التربوية التي ينشأ فيها .. فما دور البيئة التربوية في تكوين الشخصية بأبعادها الفردية والاجتماعية ؟

مفهوم البيئة والبيئة الاجتماعية

تعرف البيئة – بمفهومها الواسع- بأنّها جملة **العوامل الخارجية** (المادية والاجتماعية والثقافية) التي تشكّل المحيط الحيوي الذي يتحرك فيه الكائن البشري، وينمو ويتطور، ويؤثّر في تكوين شخصيته، بما فيها من أنماط تفكير ومواقف وسلوكات تعامل مع الآخرين.

وإذا كانت البيئة الطبيعية ذات **تأثير محدود** – إلى حد ما – في تكوين الشخصية، فإن البيئة الاجتماعية التي تبدأ بالمحيط الأسري وتنتهي بالمجتمع الكبير، تقوم بدور كبير وهام في تكوين الشخصية، من خلال ما توفّر من مؤثّرات ومحرضات ترافق الكائن البشري عبر مراحل حياته، إذ نادراً ما توجد شخصية إنسانية بمعزل عن البيئة الاجتماعية التي أنتجتها.

إن أر البيئة عامة وأثر البيئة الاجتماعية خاصة، قوي في تكوين الشخصية الإنسانية، حيث اعتبر بعض الباحثين هذه البيئة العامل الفعال – وربما الوحيد- في تأثيره على الشخصية. فنادراً ما توجد شخصية إنسانية بمعزل عن البيئة الاجتماعية التي نشأت فيها. ولذلك يختلف السلوك الاجتماعي للفرد، من مجتمع إلى مجتمع، ومن جنس إلى آخر، تبعاً لاختلاف البيئات وما فيها من نظم اجتماعية وثقافية.

البيئة والتربية

كانوا يقولون: " التربية من المهد إلى اللحد " أما التربية الحديثة فتقول بأن: " التربية من تشكّل الجنين إلى نهاية الحياة ". وهذا يعني أن تأثير البيئة في الإنسان، يبدأ من **قبل ولادته** (المرحلة الجنينية) ويستمر هذا التأثير ويتّسع عبر مراحل حياته المتتالية، بكلّ ما يحيط به في هذه البيئة. وهذا يقتضي توفير البيئة الاجتماعية / التربية التي تتصف بالمرونة، لكي تقابل مطالب النمو المختلفة والمستمرة، والتي تواكب عمليات التغيير والتطوير، بحيث المؤسسات التربوية دورها في تشكيل الشخصيات الإنسانية، تشكيلاً يصل إلى الحد الأقصى في توظيف إمكانات الأفراد وقدراتهم.

وهذا يتطلّب من المجتمع كما يقول إميل دوركهايم: أن يكون يقظاً وحاضراً من أجل توجيه الفعل التربوي وفق غاياته الاجتماعية المحددة، فلا تخضع التربية لحكم الخصوصيات. وهنا تظهر قوة تأثير العمل التربوي.

4. تكامل الوراثة والبيئة في التربية

ثمة دراسات تؤكّد علاقة التفاعل بين العوامل الوراثية والعوامل البيئية، من خلال **التأثير المتبادل** (التأثير والتأثّر)، لدرجة تجعلنا نقول: " إن الإنسان بحقّ، هو ابن الوراثة والتربية."
لكن علماء النفس والتربية يميزون بين عمل الوراثة وعمل التربية، فيرون أن الطبع: هو مجموعة الاستعدادات الوراثية التي تؤلّف الهيكل النفسي للإنسان.. وأن الشخصية هي المجموع المكون للإنسان، والذي يشتمل على الطبع الموروث والمكتسب في وحدة متكاملة.
الوراثة والبيئة تؤثّران في تكوين الشخصية، وإن كان تحديد دور كلّ منهما نسبياً وما زال أمراً صعباً. وكنّنا نستطيع أن نقول بشكل تقريبي: إن السمات الفيزيائية (الجسمية) أقلّ تشكيلاً بعناصر البيئة، بينما السمات العقلية أكثر تشكيلاً – إلى حد ما بالعوامل البيئية، وكذلك السمات النفسية.
فإذا كانت الظروف البيئية إيجابية وذات تأثير فاعل، فإنّها ترفع من مستوى تحقّق شخصية الفرد إلى درجة التوازن والتكامل، إما إذا كانت هذه الظروف سلبية (غير سليمة) فإن درجة تحقّق الشخصية تهبط إلى دون المستوى المطلوب.وفي كلا الحالين، يكون للعملية التربوية – بجوانبها المختلفة (الأسرية – المدرسية-الاجتماعية) الدور الفاعل في هذه الظروف.
فالاستعدادات والقدرات الموروثة لا تتحقّق كاملة في الإنسان، إلاّ في بيئة تقوم باكتشافها وتنميتها، وبحسب قوة تأثير محرضات هذه البيئة ومعززاتها.

5. التنمية التربوية والتنمية الاجتماعية

تعرف التنمية بوجه عام، بأنّها: " الجهد المنظّم المتكامل الذي يهدف إلى تنمية **موارد المجتمع** (الاقتصادية والاجتماعية والفكرية)، من أجل مواجهة التخلّف أولاً، ومحاولة اللحاق بركب التقدم الحضاري لتوفير حياة كريمة لكلّ فرد من أفراد المجتمع ثانياً.."
وضمن المفهوم الشامل للتنمية، تأتي التنمية التربوية التي تهتم بانتقال أفرد المجتمع من أنماط السلوك السائدة، إلى أنماط سلوكية جديدة تتلاءم مع فلسفة المجتمع وأهدافه التي تتطلبها خطّة التنمية الشاملة.. حيث تهتم التنمية الاجتماعية بتنمية العلاقات الاجتماعية والروابط الثقافية والقيم الصحية، بين أبناء المجتمع، وتعمل على زيادة قدراتهم على تفهم مشكلاتهم ومشكلات مجتمعهم، في إطار التعاون المثمر.
وهذا يؤكّد أن الإنسان هو الركيزة الأولى في أية عملية تربوية / تنموية ؛ أي تنمية مؤهلات الفرد وكفاءاته، بما يسهم في بناء المجتمع الصالح الذي تسوده الحرية والعدالة الاجتماعية

وتكافؤ الفرص للجميع.. وهذا ما يؤكّد وثوقية العلاقة التلازمية بين التنمية التربوية والتنمية الاجتماعية، في إطار التنمية الشاملة.

التقـويم النهـائي

1. عرف كلاًّ مما يلي: النمو – الوراثة – التربية
2. وضح العلاقة بين التربية وكلّ من: الوراثة – البيئة
3. شرح عملية التكامل بين الوراثة والبيئة في تكوين الشخصية
4. وضح العلاقة بين التنمية التربوية والتنمية الاجتماعية
5. قدم أمثل عن العوامل التي تؤثّر في النمو: (التغذية – الأمراض- الاضطرابات النفسية-الطبقة الاجتماعية)